سلسلة تفريغات شبكة بينونة

الحج

تزكية للنفوس وتكفير للذنوب

www.baynoona.net

الفقير إلى الله تعالى
د. أحمد بن مبارك بن قذلان المزروعي
عفا الله عنه

قام بها فريق التفريغ في
شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@baynoonanet

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر شبكة بينونة للعلوم الشرعية أن تقدم تفريغا لمحاضرة

بعنوان

{الحج تزكية للنفوس وتكفير للذنوب }

للشيخ

د.أحمد بن مبارك بن قذلان المزروعي

-حفظه الله تعالى -

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به الجميع

حقوق الطبع محفوظة لشبكة بينونة للعلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

إن دين الإسلام دين عظيم، بعث الله سبحانه وتعالى به نبيه وأنزل كتابه عليه حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى ومن دناءة النفس إلى تطهيرها، فدين الإسلام هو الدين الذي يزكي النفس ويطهرها، وهو الذي يرفع من مكانتها، كما قال الله سبحانه وتعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٥١].

والإنسان ينبغي عليه أن يكون حريصا على زكاة نفسه وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه النفس التي أودعها الخير فمن زكاها أفلح، ومن دنسها بالخير خاب وخسر فقال جل وعلا {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس:٧ – ١٠].

بين الله في الآية أنه أودع في هذه النفس الشر والخير، والإنسان بفضل

من الله يزكيها أو يدنسها، وتزكية هذه النفس تطهيرها من الذنوب، وتنقيتها من العيوب، وترقيتها بطاعة علام الغيوب، وتعليتها بالعلم النافع والعمل الصالح.

فمن كان كذلك فقد بشره الله سبحانه وتعالى بالفلاح الذي هو الفوز بخيري الدنيا والآخرة، وأما من دنسها وأوقعها في المعاصي والذنوب والعيوب، ولم يجاهد نفسه في إخراجها من هذا الدنس فقد خاب وخسر، فقد خاب خيبة عظيمة، وكلما كان مدنسا للنفس كانت خيبته على قدر تدنيسه لهذه النفس.

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى في هذه الآية مثلا على من دنس نفسه وماذا حل به، فقال الله سبحانه وتعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [الشمس:١١- ١٤]، فهذا هو التدنيس تكذيب للرسل وعصيان لهم فحل العقاب {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس:١٤ -١٥].

والمقصود أن الإيمان والأعمال الصالحة هي التي تزكي النفس، والمعاصي والذنوب هي التي تدنس النفس، والحج من الأعمال العظيمة

التي تزكي النفس من الذنوب والمعاصي، وتطهرها من السيئات قال النبي صلى الله عليه وسلم «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُور جزاء إِلَّا الْجَنَّةُ».(١)

وجاء في الحديث «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٢)، انظر إلى هذا التطهير بهذه العبادة التي هي واجبة على المستطيع مرة في العمر، بل جاء الحديث في بيان تطهير الحاج من الذنوب بأكثر من هذا، فقال ابن شماسة رضي الله عنه «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى طويلا، وقال: لَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَدَكَ لأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ، فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو»؟ قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا»؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» (٣) أي: من الذنوب

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي حديث:٢٥٩٦، وأخرجه ابن ماجه حديث:٢٨٨٥، صحيح الجامع (٢٩٠٠)

(٢) أخرجه مسلم حديث:٢٤٨١

(٣) أخرجه مسلم حديث:١٩٨

والسيئات.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما ترفعُ إبلُ الحاجِّ رِجْلاً، ولا تضعُ يَداً، إلا كَتَبَ الله له بها حسنةً أو محا عنه سيئةً، أو رفعه بها درجةً »، وقال صلى الله عليه وسلم: « وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، فَإِنَّ اللهَ تعالى يَهْبِطُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي ، جَاءُونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي وَمَغْفِرَتِي ، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ عَدَدَ الرَّمْلِ ، أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرْتُهَا ، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ »[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: « وَأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارَ، فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا تَكْفِيرُ كَبِيرَةٍ مِنَ الْكَبَائِرِ الْمُوبِقَاتِ الْمُوجِبَاتِ ، وَأَمَّا نَحْرُكَ ، فَمَدْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَمَّا حِلَاقُكَ رَأْسَكَ ، فَبِكُلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةٌ ، وَيُمْحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنْ كَانَتِ الذُّنُوبُ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ؟ ، قَالَ: إِذًا تُدَّخَرُ لَكَ حَسَنَاتُكَ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ ، ثُمَّ يَقُولُ: اعْمَلْ لِمَا

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل حديث:٢٥٤٥

تَسْتَقْبِلُ ، فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى »[1].

أجور عظيمة، وتكفير للذنوب كثيرا من خلال هذه العبادة العظيمة، فالحج يا عباد الله يزكي النفس، وفيه من الأعمال الكثيرة التي تزكي النفس، فيجتمع في الحج عبادات كثيرة من ذكرٍ وصلاة ودعاء وتوكل القلب والتقوى والتلبية؛ كل واحدة من هذه العبادات تزكي النفس.

فالحج يا عباد الله فيه رفع ذكر الله سبحانه وتعالى، كما قال الله سبحانه وتعالى {فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} [البقرة:١٩٨] كم أحبتي في ذكر الله من الفضائل العظيمة التي تطهر القلب وتسدده، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يستقيم قلب عبد حتى يستقيم لسانه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

ولا يزكو هذا اللسان إلا بذكر الله سبحانه وتعالى، ولا تطمئن القلوب إلا بذكر الله سبحانه وتعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد:٢٨] بل حتى القلوب القاسية الصلبة يذيبها ذكر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل حديث:٢٥٤٥

جاء رجل إلى الحسن البصري فقال: (يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، --نعم القلب يقسو بسبب الذنوب، وركون الدنيا فيه، والبعد عن ذكر الله سبحانه وتعالى-، فقال له الحسن: أذبه بذكر الله سبحانه وتعالى).

فذكر الله سبحانه وتعالى شفاء للقلب، وداء للمرض، ومذهب للقسوة، وهذا في الحج من أعظم العبادات.

كذلك نجد في الحج عبادة عظيمة تزكي النفس وتعلّق القلب بالله سبحانه وتعالى، ألا وهي التوكل على الله سبحانه وتعالى، روى البخاري رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، لا يأخذون معهم زاد ويقولون نحن المتوكلون، يظنون أن التوكل هو اعتماد القلب دون فعل الأسباب المأذون فيها، فإذا قدموا مكة سألوا الناس الزاد، فأنزل الله سبحانه وتعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ} [البقره:١٩٧].(١)

أي إن الحج لا بد فيه من التوكل على الله سبحانه وتعالى والاستعانة به في أدائه مع فعل الأسباب التي أمر الشرع بها، ومن توكل على الله هداه وكفاه وأعانه، قال الله سبحانه وتعالى «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»

(١) أخرجه البخاري حديث ١٥٢٣

[الطلاق:٣].

وتتحقق هذه العبادة العظيمة في الحج {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة:٢٣].

أيضا من الأمور العظيمة في الحج التي تزكي النفس وتطهرها أن الحج يذكر المسلم بالموت، فالحاج يتجرد من ثيابه وملبسه ويلبس رداء وإزارا أبيضين كما يكفن الميت في كفن أبيض، ولكن الفرق أنك في الحج أنت الذي تنزع ثيابك، وعند الموت ينزع عنك الثوب وتُلبَّس الأكفان.

فالحج يذكرنا بهذا اليقين الذي تناسيناه، والأمر الذي كلنا سيقبل عليه، ما منا إلا وميت، لذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم من الإكثار من ذكر الموت، «أكثروا من ذكر هادم اللذات»[1] والحج عبادة تذكرنا بهذا الموقف العظيم {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق:١٩] {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} [القيامة:٢٦- ٢٩].

الموت حق ومن جاءت منيته .. بأي حتف فبالمقدور مفتقد

لا يتأخر ساعة ولا يتقدم ساعة

---

(١) أخرجه النسائي (١/ ٢٥٨).

فلا تغرنك الدنيا وزخرفها .. وانظر إلى فعلها في الأهل والوطن

وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها .. هل راح منها بغير القطن والكفن.

من الأمور التي تكون في الحج وهي سبب لزكاة العبد: أن الحج مجمع عظيم، يجمعنا بأناس أفاضل من أصناف الناس العباد والزهاد، إلا أن هناك صنفا مميزاً ميزه الله سبحانه وتعالى ورفع قدره ودرجته؛ ألا وهم العلماء، فالعلماء هم الذين يزكون أنفس الناس بالكتاب والسنة، فهم الذين يحيون قلوب الموتى، وهم الذين يبصرون أهل العمى، وهم الذين ينقذون أهل الغفلة من غفلتهم بإذن الله سبحانه وتعالى.

فهذا يذكرنا أو يرشدنا لأمر هو حاجة الأمة للارتباط بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فكلما كانت الأمة والشعب والناس مرتبطين بعلمائهم من أهل السنة المعتدلين الربانيين كانوا على هدى، وكانوا من الفتن أبعد، ومن الانحراف أبعد، لذلك ميز النبي صلى الله عليه وسلم بين العلماء والعباد، وبين العلماء وأهل الفتنة والضلالة حتى يعرف العبد العالم فيسير على نهجه ويتمسك بما عليه من طريقة فينجو بإذن الله.

من الأمور التي تكون في الحج وتزكي النفس: أن الحج يقود إلى تقوى الله، وقد تضمنت آيات الحج من سورة البقرة كثيراً من هذا الإرشاد

والتوجيه والأمر به، أعني التقوى، وقال الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى من آيات الحج {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [البقرة:١٩٦] وقال{ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة:١٩٧]، وقال {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [البقرة:٢٠٣].

فتقوى الله خير زاد، وأعظم ما يستعد به العبد في يوم الميعاد وهي السبب التي تنجي العبد من الفتن والمفاسد بإذن الله سبحانه وتعالى.

أيضا من الأمور التي تزكي النفس في الحج: أن الحج يذكرنا بموقف يوم القيامة، الحج أكبر مجمع إسلامي في مكان واحد يكون الناس فيه على هيئة واحدة، فهذا يذكر الخلق بيوم الحشر، يوم يعرض الناس على ربهم حفاة عراة غرلا بهما، لا دينار عندهم ولا درهم، لا ينفعهم بإذن الله إلا العمل الصالح.

كما قال الله سبحانه وتعالى {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: ١٨]، {ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [هود:١٠٣]، نعم يا عباد الله من تدبر هذا الموقف وقرنه بذلك الموقف العظيم استعد للوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

أيضا الحج يذكرنا بأمر مهم، ألا وهو أن وحدة الإسلام والمسلمين، واجتماع أهل الإسلام يكون بعد التحقق في أمرين عظيمين:

الأمر الأول: قيام الدين، والأمر الثاني: الارتباط بولاة أمر المسلمين.

ففي هذا الحج لا يجمعنا هذا الاجتماع إلا ركن من أركان الدين وهو الحج، ولا نجتمع في هذا الاجتماع العظيم على هذا الترتيب والنظام إلا تحت إمرة ولي أمر المسلمين، ودون هذا لا ينتظم لأهل الإسلام دين ولا دنيا، لذلك قال عمر رضي الله عنه: (لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامه إلا بسمع وطاعة).

أحبتي لما كان الله سبحانه وتعالى قد وضع في نفوس المؤمنين حنينا إلى مشاهدة بيته الحرام، وليس كل أحد قادرا على مشاهدته في كل عام، فرض الله الحج على المستطيع مرة واحدة في العمر، وجعل من لم يستطع الحج وكان قاعدا في مكانه يشارك الحجاج في أيام عظيمة ألا وهي أيام العشر من ذي الحجة، أيام ما من عمل أحب وأفضل عند الله من العمل فيهن.

فالله سبحانه وتعالى يحب العمل في هذه الأيام، وهي أفضل عنده من سائر الأيام، وشارك الله بين الحجاج وغيرهم بأمور حتى يأنس غير الحاج بالعبادة كما يأنس الحاج، فاشتركا في التلبية، أو هذا يلبي وهذا يكبر،

فاشتركا في الذكر من تلبية وتكبير، واشتركا في الذبح بين أضحية وهدي، واشتركا في عدم أخذ الشعر وتقليم الأظافر، واشتركا أن أهل الحج يجتمعون في يوم النحر، وغيرهم يجتمع في يوم العيد.

وميز الله غير الحاج بمزية وهي صيام يوم عرفة الذي يكفر سنة سابقة وسنة قابلة حين يجتمع الحجاج في ذلك الموقف العظيم، لكن على الإنسان أن يحسن النية،

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد .. سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا .. ومن أقام على عذر كمن راح.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما، وأن يبلغ الحجاج بيت الله الحرام، وأن يكتب لنا أجر الحجيج، وأسأله سبحانه وتعالى أن يعيننا على أداء حقه في هذه الأيام المقبلة، العشر الأوائل من ذي الحج، ونسأل الله سبحانه الأمن والأمان في بلاد المسلمين، وأن يوفق ولاة أمرنا لكل خير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

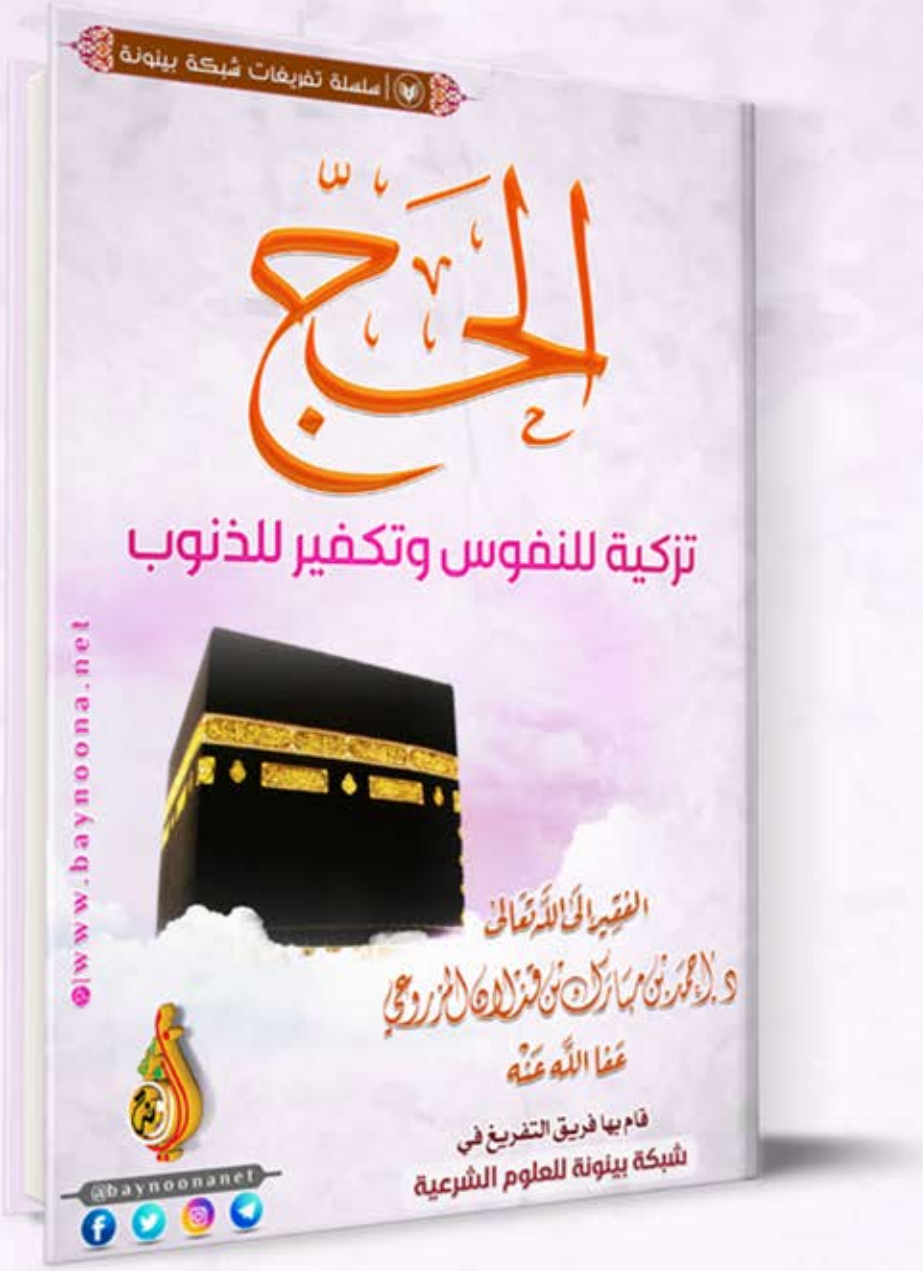

شبكة بينونة للعلوم الشرعية
نعتني بنقل العلم الشرعي في دولة
الإمارات العربية المتحدة